الحزب وتجربة الحكم

أيها الاخوان[1]

إن الظروف العصيبة التي يمرّ بها وطننا العربي استدعت الاتصال بين ممثلي القيادة القومية ومنظمات الحزب في أوروبا لكي نوضح لرفاقنا مالم يستطيعوا معرفته نظراً لابتعادهم عن وطنهم ولقلة المعلومات المتوفرة لديهم. . ولسبب آخر حصل هذا الاتصال هو أن نطلب من الرفاق الذين أنهوا دراستهم أو قطعوا شوطاً بعيداً فيها يمكنّهم من المساهمة في خدمة الحزب سواء في العراق أو في سوريا، سواء في العمل الشعبي أو العمل الحكومي لأن الظرف يستدعي تعبئة جميع الامكانيات ولأن الحزب مضطر أن يعبىء جميع إمكانياته وأن يضع كل طاقات أعضائه في هذه المعركة التاريخية التي هي مصيرية بالنسبة للحزب وبالنسبة للأمة كلهّا. فالحزب الآن مسؤول مسؤولية مباشرة عن الحكم في قطرين عربيين هما في طليعة الأقطار العربية. والحزب مطالب بأن يبرهن على جدارته في الحكم كما برهن على جدارته في النضال، مطالب بأن يعطي لشعاراته معناها العملي وكل أبعادها النظرية والعملية، والحزب مسؤول مسؤولية تاريخية أن يشقّ طريقاً جديدة جريئة للثورة العربية، لثورة الوحدة والحرية والاشتراكية، ولو كلفّه ذلك أقسى المشاق والتضحيات. إن الحركة التاريخية لايمكن أن تكون سهلة الطريق ولايمكن أن تؤدي مهمتها بالجهود اليسيرة بل لابد من التضحيات الجسيمة. هذه هي سنّة التاريخ

(١) حديث في اجتماع المنظمة الحزبية في برلين بتاريخ ١ تموز ١٩٦٣.

وقانون الثورات وأنا مؤمن بأن شباب الحزب في كل مكان واعون هذه الحقيقة، مقدّرون مسؤوليتهم حق قدرها وانهم يشعرون ويدركون أن أفكار البعث وطريق البعث ليست أشياء للتغني أو انها ترف يضاف، بل إنها هي حياة الملايين من أبناء الشعب العربي، هي مصير أمة بكاملها. وأن هذه الأفكار وهذه الطريق إذا وجد من يدافع عنها ومن يستبسل في سبيل تحقيقها بأمانة، فإن مستقبلاً كريماً وناصعاً وسليماً يتوفر لهذه الملايين من أبناء شعبنا. وإذا لم يوجد من يدافع عنها ومن يستبسل من أجل إخراجها الى العمل فإن آلاماً كبيرة وطويلة يمكن أن تنتظر أمتنا وأن ذلاً كبيراً يمكن أن يلحق بهذا الشعب الكريم وبهذه الأمة العظيمة. فإذا نحن استهزأنا بمهمتنا التاريخية وإذا لم نكن في مستوى المسؤولية.. فهذه الأفكار وهذه الطريق، طريق البعث، عليهما يتوقف مستقبل عظيم، ولم يعد جائزاً لأحد من أفراد الشعب العربي فضلاً عن أعضاء حزب البعث.. لم يعد جائزاً لعربي واعٍ أن يتجاهل النتائج التي تنتج عن التهاون في مثل هذه الأفكار الكبيرة والقضايا الكبيرة المتعلقّة بوحدة الأمة العربية وبالطريق السليمة لتحقيق هذه الوحدة وبحرّية الشعب العربي والمواطن العربي وبطريق الاشتراكية وبالأسلوب الذي يضمن ثوريتها وسلامة تحقيقها وضمانة بقاء الانجازات الاشتراكية وصمودها لكل حادث. فالمسألة إذن هي بهذه الخطورة..

أيها الاخوان

لاشك أن مايجول في خواطركم من أسئلة تدور كلها أو يدور أكثرها حول الأزمة الحالية، الأزمة التي ظهرت بعد ثورة العراق سوريا والمساعي التي بذلت من أجل تحقيق بداية جديدة سليمة للوحدة العربية بين الأقطار العربية الثلاثة: مصر وسوريا والعراق.

إن حزبكم أيها الاخوان حمل هذه الأفكار منذ أكثر من عشرين عاماً وناضل في سبيلها نضالاً صادقاً وانتشر وتوسّع حتى انه اليوم يكاد لايخلو قطر عربي من تنظيم بعثي مهما كان صغيراً، وأعطى الحزب للوحدة العربية المكان الأول في تفكيره الثوري وفي نضاله، ولقد ضحّى كثيراً حتى أخرج هذه الفكرة من عالم الأماني الى

عالم الانجازات في أول تجربة للوحدة عام ١٩٥٨. وكان مبرر تساهله في عام ١٩٥٨ ـ مبرر الخطأ الذي وقع فيه الحزب عندما قبل بحل تنظيمه بسوريا ـ هو هذا الحرص على الوحدة العربية وعلى أن تصبح في ذهن كل عربي وفي ضمير كل عربي.. أن تصبح حقيقة واقعة وأن تصبح شيئاً قابلاً للتحقيق.. أن تصبح حركة تاريخية بعد أن ظلّت عشرات السنين في هذا العصر لفظة فارغة المعنى وألعوبة بأيدي محترفي السياسة ورجال الحكم، حتى كاد اليأس يدب في نفوس العرب من هذا الهدف القومي الكبير وحتى كادت دعاية أعداء القومية العربية تجد آذاناً صاغية، تلك الدعايات التي كانت تسمي الوحدة العربية حلماً وخيالاً.

أراد الحزب في عام ١٩٥٨ أن يقضي دفعة واحدة على هذه الحالة النفسية وأن يثبت للشعب العربي في كل مكان أن الوحدة حقيقة حية قابلة للتحقيق. وكان الحزب عندما انتكست الوحدة بعد أشهر من تحقيقها وبعد أن ظهرت الأخطاء والانحرافات الضخمة بالحكم، وحتى بعد أن أدّى كل ذلك إلى الانفصال ـ وكان الانفصال كارثة قومية عامة ـ وحتى أثناء الانفصال وما جرى فيه من تجنّ على القومية العربية وتآمر على فكرتها ومن أراجيف وأباطيل.... حتى في تلك الظروف القاسية السوداء كان الحزب يشعر ويعرف أنه حقّق عملاً عظيماً تاريخياً عام ١٩٥٨. وان كل الأخطاء والانحرافات والمآسي التي نتجت عنها لاتعادل جزءاً صغيراً من الكسب الكبير الذي نتج عن تحقيق الوحدة.

ولكن بعد أن قطعنا هذا الطور من نضالنا وبعد أن دخلت الوحدة في عالم الحقائق، بعد أن كانت في عالم الأحلام والأماني، أصبح أمامنا واجب آخر، واجب جديد هو أن نبني الوحدة على أسس سليمة، أن نضع الوحدة في الطريق السليم الذي لا ضلال فيه ولا انحراف ولا انتكاس. في عام ١٩٦٣ لم تعد الغاية الأولى لنضال الحزب أن يحقق الوحدة بأي شكل وأي ثمن، بل أصبحت الغاية أن يحسن تحقيق الوحدة بأحسن شكل وأن يستفيد من تجربة الوحدة بكل ظروفها وملابساتها لنبرهن على أن نضالنا جدي عميق متكامل وانه ينمو في الخبرة والتجربة والوعي واننا حقاً استفدنا من التجارب.

هكذا كان موقف الحزب بعد ثورتي سوريا والعراق يتجلى بحرص قوي على الوحدة وخاصة انه كان القوة الشعبية الأولى زمن الانفصال التي دافعت عن الوحدة والتي صمدت للانفصال والتي أعطت للنضال الوحدوي قيمته ونفوذه وهيبته. لأن الانفصال كان قد جمع كل القوى المضادة لوحدة الأمة العربية والتي تعمل ضد فكرة القومية العربية: جمع الاستعمار بكل أطرافه، مع إسرائيل، مع الرجعية العربية، مع الشعوبية والانتهازية وكل ما هو فاسد ومتعفن فجمعها لينقضّ على فكرة القومية العربية التي هي فكرة ثورية ولكي يعمل فيها الهدم ولكي يشفي منها أحقاده. في تلك الأيام السوداء، أيام الانفصال، لم يكن غير حزب البعث العربي الاشتراكي بقادر أن يعطي لفكرة الوحدة ولشعار الوحدة حرمة او هيبة لأن وراء هذا الحزب نضال عشرين سنة في سبيل الوحدة. لم تكن الفئات الانتهازية والعميلة التي كانت ترفع شعار الوحدة بدافع نفعي هي التي إستطاعت أن تقضي على عهد الانفصال ولكن الحزب هو الذي استطاع، بينما كانت تلك الفئات وهؤلاء الأشخاص الذين برزوا بعد الانفصال متوارين مختبئين. وهكذا فإن الحزب قدّم للوحدة كثيراً وسيظلّ الرسول الأمين لهذا الهدف القومي.

بعد ثورة العراق أخذ الحزب المبادرة وذهب وفد الى القاهرة ليزيل كل ماكان بين الحزب وبين الجمهورية العربية المتحدة من خلافات، ولكي تعود القوى الثورية من جديد الى التعاون في سبيل تحقيق الوحدة. وبعد شهر من ثورة العراق قامت الثورة في سوريا وذهب ممثلوا الحكم الثوري في سوريا مع ممثلي الحكم الثوري في العراق إلى القاهرة بنفس الدافع ولنفس الغرض. وتتابعت الاجتماعات والرحلات التي أوصلت الى ميثاق القاهرة. هذا الميثاق الذي لم يجيء على أسلم وجه وأحسن شكل والذي يتخللّه شيء من الغموض وشيء من الضعف، ولكن على كل حال سجّل حداً أدنى من الضمانات لسلامة تحقيق الوحدة الجديدة: الوحدة الثلاثية. لقد اعتبر الحزب أن تحقيق الوحدة بين ثلاثة أقطار عربية متحررة خطوة تأريخية كبيرة وان هذا الشيء، أي تحقيق الوحدة بين أكثر من قطرين ووجود العراق بالذات في هذه الوحدة يعطيها قيمة وضمانة، وان الوحدة الثلاثية تسمح أكثر من

الوحدة الثنائية بالتكافؤ بين الاقطار وتسمح بالتفاعل بين الاقطار وتسمح بارساء الوحدة على أساس سليم متين من التنظيم الشعبي طالما أن الحزب قائم ومتحمّل للمسؤولية في قطرين من هذه الأقطار الثلاثة. ولكن كلّ الآمال التي علّقها الشعب العربي على هذه الوحدة الجديدة عصفت بها الأنواء بعد قليل من عقد ميثاق القاهرة دون أن يكون للحزب أي دخل بهذه الحملة المخربة التي صوُبت على الوحدة وعلى الحزب ودون أن يتزعزع إيمان الحزب بالوحدة وبميثاق القاهرة أو يتراجع شعرة واحدة عنه، ولكن يجب أن نتساءل ونوضح ماهو السر في هذه الأزمة المفتعلة وفي هذه الحملة الجائرة وفي هذه المعركة الطائشة التي تخالف كل منطق قومي. فالمنطق القومي يقضي بأن تتقارب القوى الثورية العربية وأن تتعاون وأن تتحد لا أن تتصارع ويفني بعضها بعضاً. الشيء الذي يجب أن يكون واضحاً لكم أيها الاخوان هو أن الحزب قَبِل عن رضى وقناعة ووعي باستئناف السعي للوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ورئيسها جمال عبد الناصر. . فالحزب يعرف أن مصر عنصر أساسي في بناء الوحدة العربية ويعرف أيضاً بأن النظام القائم في مصر (نظام عبد الناصر) هو نظام لايمكن تغييره في يوم وليلة وهو نظام له نواحٍ إيجابية تقدمية ونواحٍ سلبية، ولابد من الصبر عليه وانتظار التطور البطيء السليم حتى يتعدّل هذا النظام، وان كل تعديل سريع له لايكون في مصلحة العروبة ولا في مصلحة الثورة. لذلك كان الحزب قابلاً عن وعي ومسؤولية هذا التعايش والتعاون الصادق بينه وبين عبد الناصر من أجل الوحدة العربية من أجل إنجاح الوحدة. كل هذا بشرط أن يقبل هذا النظام من جهته التعاون مع الحزب، إذ أن الحزب هو الضمانة الرئيسية الجدّية لتحقيق الوحدة بشروط وأسس سليمة. إذن كان الحزب مصمماً على الوحدة ومصمماً بنفس الوقت على عدم تكرار الأخطاء السابقة. ولكن ظهر بأن هذا النظام القائم في مصر لايقبل بالحزب ولايقبل بالتعايش معه وبالتالي لايقبل أن تقوم الوحدة على أسس سليمة وأن تتوفر فيها ضمانات لحمايتها من الخطأ والانحراف. وكان النجاح الذي أحرزه الحزب في العراق بعد تضحيات بطولية قدّمها خلال سنين وتوّجها بتضحيات كبيرة في يوم الثورة. . كان هذا النجاح الذي كان نجاح الثورة العربية كلها والقوى الثورية

العربية كلها، كأنه كان نذيراً لنظام الحكم في الجمهورية العربية المتحدة بأنه يجب أن يزاح هذا الحزب من الطريق وأن يلغى من الوجود، لأنهم لم يروا فيه الأخ والصديق، بل رأوا فيه المنافس والمزاحم، وهذه نظرة بعيدة كل البعد عن الثورية. فالثورة العربية بقناعتنا وبمنطقنا هي مجموعة التجارب الثورية في جميع أجزاء الوطن العربي. حتى حزبنا ما ادّعى في الماضي ولن يدّعي أنه التجربة الثورية الوحيدة وأنه التجربة القدوة المثالية التي تغني عن كلّ تجربة ثورية أخرى. فمنطلق تفكيرنا منطلق حر واقعي أصيل لأنه شعبي، لأنه منطلق النضال والثورة لا منطلق الحكم ومصالح الحكم ودوافع السيطرة والاستئثار. فنحن لن ننكر حتى على هذا النظام القائم في مصر الذي كان المسؤول الأول عن انتكاسة الوحدة في عام ١٩٥٨ والذي أوصل الى كارثه الانفصال وما فيها من مآس ـ هذا النظام لم يحكم عليه الحزب حكماً سلبياً نهائياً بل اعتبره قبل كل شيء حكماً عربياً تقدمياً فيه نواحي سلبية تبرّرها ظروف محلية لقطر عربي هو مصر وانه بالتالي لابد من التعاون معه وانتظار التفاعل البطيء الذي يكفل تحرير هذا النظام من نواحيه السلبية.

مقابل نظرتنا الواسعة الحرة ظهرت تلك النظرة الضيقة المتعصبة التي ترفض التعايش مع حزبنا وفي الواقع ترفض أن يبقى حزب البعث في الوطن العربي لأنها تشن على حزب البعث حرب إفناء ـ ولكن ماذا يمكن أن ينتج فيما لو قدّر لهذه النظرة المتعصبة أن تنتصر. . . هل ينتج عن ذلك تحقيق الوحدة؟ كلا! لأن الشعب العربي لايمكن أن يقبل بتجربة للوحدة تكون تكراراً للتجربة السابقة ـ ولا يوجد مايمنع من أن تكّرر التجربة السابقة إذا زال حزب البعث من الوجود أو إذا ضعف حزب البعث بشكل لايستطيع معه الصمود والدفاع عن مبادئه وأفكاره ولايستطيع بالتالي أن يضمن سلامة تحقيق الوحدة. الوحدة السابقة إنتكست وفشلت لسببين رئيسيين لم يعودا سراً من الأسرار: الحكم في التجربة السابقة للوحدة كان حكماً فردياً، والحكم في التجربة السابقة كان حكماً تسلّطياً إقليمياً، وإذن كان لابد في الوحدة الثلاثية الجديدة من أن توضح الضمانات ضد الفردية بالقيادة الجماعية وضد التسلط الاقليمي بالتكافؤ بين الأقطار وأن يضمن كل تنظيم شعبي حقيقي لا صوري مزيّف.

أيها الاخوان

لم تكن في عام ١٩٥٨ وحدة لقطرين فحسب، وإنما كانت نواة للوحدة العربية الكبرى، وليست الوحدة الثلاثية التي وضعنا أسسها قبل أشهر هي وحدة لثلاثة أقطار فحسب وإنما هي بداية لكي تضم جميع أجزاء الوطن العربي. لذلك يشعر المسؤولون الشعبيون في هذه الأقطار بأنهم مطالبون بأن يبنوا وحدة تتسع للأمة العربية كلها تتسع للأقطار العربية كلها وتتجاوب مع ضمير كل عربي.. تتجاوب مع إرادة العرب جميعاً، أي تتسع للمستقبل وان تحسب حساباً له.. أن تبنى على أسس سليمة متحرّرة تصمد للتطور أي أن تكون خالية من التحكّم والتفرّد والارتجال والتعصب، أن تتسع لكل التجارب الثورية في أجزاء وطننا الكبير. هذه المسؤولية التي تفرض علينا أن نراعي ظروف ونفسية الأقطار العربية كلها هي التي تدعونا وتدفعنا الى الصمود في هذه المعركة التي لم نردها والتي فرضت علينا فرضاً. في هذه المعركة غير المتكافئة في هذه المعركة التي لا أجد لوصفها إلا أنها معركة القوة الغاشمة.. معركة وسائل الدولة الضخمة التي تجيز لنفسها بالاستناد الى قوتها أن تحول الحق الى باطل وأن تفتري على الحقيقة بكل الأشكال والألوان غير عابئة بمصلحة الأمة وغير عابئة بمستقبل الشعب ومستقبل القضية وبأنه لاتبنى أمة ولا يبنى لها مستقبل على الكذب والافتراء وعلى اعتماد القوة فحسب. والحزب رغم ذلك كله لم يفقد صفاء تفكيره ولم يفقد هدوء أعصابه ولم يفقد شعوره بالمسؤولية وبالمصلحة القومية، فهويتجنّب الانزلاق في هذه المعركة وإن كانت سهامها تصوّب عليه في كل يوم وفي كل ساعة، ولكنه مطالب أيضاً أن يكون واقعياً وألا يكون كالنعامة.. مطالب بأن يصمد وأن يقوّي نفسه حرصاً على المبادىء والقيم التي يمثلها ويدافع عنها، مطالب بأن يعبىء جميع إمكانياته وأن يستغلها على أحسن شكل وأن يبرهن على أنه فعلاً الحزب الشعبي، أي الحزب الذي يمدّه الشعب كل يوم وكل ساعة بدم جديد، بروح جديدة، وبكفاءة جديدة وبطولة متجددة. انه يعرف أنه يمثل نضال المستقبل العربي نضال الأمة العربية كلها مع إصراره على تجنب الانزلاق في المهاترات وفي الخصومة حتى يكسب الرأي العام العربي إلى جانبه،

وحتى يدفع هذا الرأي العام الثوري الى تحملّ مسؤوليته لكي يتدخل ويحول دون هذا التدمير الاجرامي وأن يحول دون هذه المعركة التي لاتستند الى حق بل الى قوة الوسائل فحسب. الحزب أيها الاخوة فيه نواقص عدة، ثغرات كثيرة، لم يتمكن في الماضي من معالجتها وتلافيها، أما الآن فالظرف لايسمح بذلك. علينا أن نكون في مستوى الظرف وأن نوفّر للحزب كل الوسائل التي تمكّنه من التخطيط العلمي الواقعي البعيد المدى الشامل الأفق ومن تنفيذ مايخططه بنجوع وإحكام. ترون أن الوسائل حتى الآن لازالت يسيرة للغاية، وللحزب صحيفة في دمشق وصحيفة في بغداد، وهذه الوسائل المتواضعة إلى أبعد الحدود استطاعت أن تعلن عن حقائق كبرى، استطاعت جريدة «البعث» على ضعف مستواها، أن تعلن عن حقائق كبرى يمثلها الحزب وتتجسد في صمود الحزب في هذه المعركة، وعلينا أن ننمي هذه الوسائل الى مسافات أبعد وإلى إعداد أكبر والى طبقات من الشعب أوسع. علينا ان نوسع اتصالاتنا بالرأي العام العالمي التقدمي، ولا نغترّ من أن الجميع يعرفون حقيقة نوايانا وماضينا ويعرفون النقاط الأساسية التي نتمسك بها حرصاً على الوحدة والثورة ـ فيجب أن نوسع هذه الاتصالات، ولقد حصلنا في كل مرة اتصلنا فيها بالرأي العام الغربي الثوري التقدمي على نتائج طيبة لأن قضية الحزب قضية عادلة وواضحة لاتحتاج إلا لأن تُعرف وإلا لأن يُسمع صوتها.

أيها الاخوان

أعتقد بأن من الأغراض الأساسية لهذه الحملة الظالمة التي تشهر على الحزب أن يُشل الحزب ويشغل الحزب حتى لايستطيع أن يعمل عملاً جدياً فيفقد ثقة الشعب به كحزب ثوري. ولذلك فإن الجواب الجدي والجواب السليم على هذه الحملة لا يكون بمقابلة السب والافتراء بالافتراء وإنما يكون بأن نمكّن حزبنا من تحقيق الثورة، والانجازات الثورية. لقد قام حزبنا بثورتين عظيمتين في العراق وسوريا فعلى الحزب في هذين القطرين أن يحقق الثورة فعلاً، أن يحقق الانجازات الاجتماعية والاشتراكية حسب مخطط مدروس ومنهاج مرحلي، وأن يحقق الديمقراطية الشعبية بأن ينظم الشعب للدفاع عن قضيته وأن يحمي ثورة الشعب من

الاستعماريين والرجعيين والشعوبيين. فعلينا أن نمضي دوماً الى الأمام. الوحدة لاتتحقق الا في ظروف ثورية، وعندما نقوم بالانجازات الثورية يتهيأ الجو وتتهيأ الشروط للوحدة، وهذا كله يتطلب مساهمة الجميع فالظرف ظرف مصير. . . مصير الحزب ومصير الأمة ومصير الثورة العربية. . وكل الاعتبارات يجب أن تخضع لهذا الهدف: هدف المحافظة على مصير هذه الحركة الثورية التاريخية.

وإني أترك لكم الآن مجال الأسئلة. .

● **ماهو موقف الحزب المقبل تجاه الوحدة وبالذات تجاه الاستفتاء؟**

الحزب ماض في طريقه ينفذّ ماتعهد به في ميثاق القاهرة. الحزب أو الحكم في العراق وسوريا يشكل اللجان التي نص عليها الميثاق وسوف يطلب من حكومة الجمهورية العربية المتحدة أن تجتمع لجانها مع هذه اللجان لوضع الدستور الاتحادي وتنسيق الأعمال الأخرى في النواحي العسكرية والقضائية. . . ، وسيجري الاستفتاء في الموعد المحدد. الحزب هو الذي طرح شعار الوحدة الثلاثية وطالب باتحاد الأقطار الثلاثة بعد ثورتي سوريا والعراق. الحزب من عقيدته ومن منطقه ومن مصلحته أن تقوم هذه الوحدة لأنه لايخاف على نفسه من النظام القائم في مصر، بل يؤمن بأن التعايش والتعاون بين مختلف التجارب الثورية العربية هو الذي يوصل الى وحدة الثورة العربية والى قوّتها وإلى ظفرها، وهذا ماسيحققه الحزب.

والحزب رغم أنه لم يبلغ بعد مستوى الجمهورية العربية المتحدة في ضخامة الوسائل، فهو صاحب قضية وهو يعرف ذلك، وبالتالي لايخاف على نفسه ولا على مستقبله. قد يؤذى منه أشخاص وأفراد شرط أن يبقى أميناً على مبادئه يتجاوب مع الشعب. فلو أخذنا بالوساوس الزائدة عن عبد الناصر لوصلنا الى مواقف بعض أعضاء الحزب السابقين في سوريا ولبنان . نحن نعتبر أننا أقوى من عبد الناصر ونظامه والمستقبل لحزبنا، ونحن مسؤولون عن القطر المصري في تصحيح سيره وتأكيد عروبته. . وليست تساهلات الحزب بضائرة له بل انها تنم عن حرصه القومي. ثم ان قبولنا التعايش مع عبد الناصر، هو دليل لقوتنا ورفض عبد الناصر لهذا التعايش دليل الضعف والخوف من المستقبل ولثقته بأنه لا يستطيع التنافس مع حركة

شعبية أصيلة. إن القوى التي ظهرت خلال الشهور الأخيرة هي في جانب الحزب وحملة الافتراءآت الأخيرة خدمت الحزب، وان قوى الحزب تتقدم يوماً بعد يوم، ومن الواضح انه لايمكن أن تقام وحدة بدون حزب البعث العربي الاشتراكي.

١ تموز ١٩٦٣